ابن خلدون : جدلية الفكر... والمنهج

أ.د. حاتم بابكر هلاوي
جامعة النيلين – السودان –

مقدمة :

لعل الخطأ وقد فيه الكثير من المفكرين والذين تنالوا أعمال المفكر العربي ابن خلدون في السعي للربط بين نشأة علم الاجتماع وهذا العالم الجليل ولعل الحماس لهذا الفكر العربي الكبير بل للثقافة العربية والإسلامية قد قاد إلى هذا المنهج حيث أن ريادة العرب المسلمين لكافة العلوم الطبيعية كالطب والهندسة وعلوم الفلك والرياضيات... الخ قد دفع بأولئك المفكرين للبحث عن ريادة العلوم الإنسانية عبر بوابة (العمران البشري) بل سعوا للقول بأن أقسام الدراسات الاجتماعية الحديثة وتفرعات الاجتماع المختلفة كعلم الاجتماع السياسي وعلم الاجتماع الاقتصادي والمرفولوجيا الاجتماعية...الخ إنما هي موجودة في (المقدمة) لابن خلدون[1] وقد ذهب د. وافي على ذات المنهج معلقاً بالقول (وقد ظن دوركيم وأعضاء مدرسته أنهم أول من فطن إلى الخواص الاجتماعية لهذه الظواهر الاجتماعية) وأول من أدخلها في علم الاجتماع ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمس قرون[2].

إن مثل هذه الآراء وبطبيعة الحال تجعل من ابن خلدون في خط مواز مع غيره من المفكرين من أمثال أوجست كومت وأميل دوركيم وماركس فيبر وغيرهم من رواد علم الاجتماع – علماً بأن النظرة إلى (الفكر الخلدوني) ينبغي أن تتجاوز العمران البشري على التنقيب في الجوانب الفلسفية لآرائه تمامً كما هو الحال بالنسبة

للماركسية حيث لا يمكن أن يعد ماركس كعالم اجتماع بل لم ترد كلمة علم اجتماع في كل أعماله علماً بأن الفلسفة الماركسية قد شملت كافة الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والمعرفية مما جعل الحديث عن ماركس يختلف كثيراً عن غيره من المفكرين والذين لا يمكن إلا أن يكونوا علماء اجتماع لم تتجاوز إسهاماتهم الظاهرة الاجتماعية وخواصها[3]. من هذا المنطلق فإن النظرة لابن خلدون لا بد أن تركز على الفئة الأكثر تلازماً له بمعنى هل هو عالم اجتماع أم فيلسوف أم مؤرخ ؟ وهل يمكن الحديث عن العمران البشري باعتباره تراثاً نظرياً للدراسات الاجتماعية أم التاريخية سواءً في فرضياته أو مناهجه أم أنه يقع في منطقة تجمع بين هذا وذلك ؟

خلفية تاريخية :

ولد ابن خلدون واسمه ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان محمد بن محمد بن خالد بن الخطاب في تونس في غزة رمضان في عام 732 هـ (1333م) ويقول عن نفسه (ربيت في حجر والدي إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن نزال الأنصاري ودرست عليه كتباً جمة مثل (كتاب التسهيل) لابن مالك و(مختصر ابن الخطيب في الفقه) وأثناء ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر كما أخذت عن أبي عبد الله محمد إبراهيم الأيلي العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية) [4].

إن السيرة الذاتية لابن خلدون تشير وبوضوح إلى نبوغه الباكر كما أن تنقله بين الأمصار والملوك قد بدأ وهو لم يزل في ريعان الشباب حيث تنقل من تونس إلى فاس إلى الأندلس والقسطنطينية ثم الإسكندرية فالقاهرة التي توفي بها في 25 رمضان عام 808 هـ الموافق لـ 1406 م وكان خلال هذه التنقلات ليس فقط قريباً

من الحكام والولاة بل أنه قد مارس أدواراً فاعلة في الحكم وفي تدبير المؤامرات ضد أصحاب السلطان مما أورثه السجن كما حدث في فاس عندما استخدمه سلطان فاس في كتابته والتوقيع بين يديه في عام 756 هـ فلم ترق له هذه الوظيفة فتآمر ضد السلطان وأودع الحبس بعد اكتشاف ذلك التآمر وبقي في السجن حتى مات السلطان حيث أطلق الوزير الحسين بن عمر سراحه وأكرمه ولكنه اتصل بالقائم بأمر بني مرين منصور بن سليمان وتعاون معه في حصار الوزير ابن عمر ثم ترك ابن خلدون منصور بنم سليمان وشائع السلطان أبا سالم والذي دخل فاس منتصراً عام 760 هـ ...وهكذا[5].

إن هذا يدلل على أن إسهامات ابن خلدون إنما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتجارب عملية عاشها خاصة في حديثه عن العمران البشري وزوال الملك مما جاء في أعماله الكبيرة ولمن يكتفي فقط بما قرأ وتعلم وسمع كغيره بل عايش الأحداث وشارك في صنع البعض منها.

أعمال ابن خلدون :

لقد ظل إسهام ابن خلدون التاريخي مضمناً في موسوعته والتي قدمها بأنها (كتاباً يحاول أن يظهر فيه أصل العمران والدول مع ذكر أسباب قيامها وانهيارها) [6] تقع في مقدمة وثلاث كتب يبحث في المقدمة فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه وفي الكتاب الأول يبحث ابن خلدون في العمران وذرك ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش أما الكتاب الثاني فقد خصصه للبحث في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدأ الخليقة حتى تاريخه وبحث عن أخبار البربر ومواليهم وما كان بديار المغرب خاصة في كتابه الأخير والذي اسماه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) [7].

هذا وعلى الرغم من الترابط المنطقي بين هذه الكتب مع المقدمة في تسلسلها واتساقها إلا أن كتابه في العمران البشري مع المقدمة يشكلان معاً خلاصة تجربة هذا المفكر الكبير على اعتبار خصوصية ما حوته الملفات اللاحقة لهما.

دورة العمران ... دورة الحياة :

تعتبر حركة التاريخ عند ابن خلدون حركة انتقال مستمرة من البداوة على الحضارة لا تسير على خط مستقيم وإنما على شكل دورة تبدأ بالريف الآمن المستقر وتنتهي بسقوط الدولة عبر فاتح جديد بعد أن تكون الدولة قد تملكتها الانهيارات الداخلية نتيجة للرخاء والترف الذي يقود للانغماس في الملذات وإهمال شؤون الرعية مما سيقود على ضعف الدولة وفنائها.

إن وجهة نظر ابن خلدون هذه ربما تختلف عن الكثيرين من علماء الساسة ذلك لأنه يرى في الدولة الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما وهكذا يمكن تصنيف أراه إلى قسمين : القسم الأول يتناول امتداد الدولة في المكان أي مدى نفوذها واتساع رقعتها والآخر يتناول استمرارها في الزمان أي المراحل التي يجتازها حكم العصبية الحاكمة من يوم استلامها للسلطة إلى انهيارها وهو هنا يرى أن الدولة لن تنتهي بأي حال من الأحوال كما تذهب النظرية المراكسية بل فقط تنتقل من عصبية لأخرى دون أن يكون لهذا الانتقال أي انعكاس في الحضارة أو في جملة العمران[8] (إن انتقال الحكم من عصبية خاصة على أخرى مماثلة لا يؤثر لا في الحضارة ولا في العمران...لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة) [9].

وبعد هذا العرض لأحوال الدولة يكرر ابن خلدون أن لا بد للعمران البشري من سياسة لتنظم بها أمرخ سواءً كان مصدر هذه السياسة العقل أي الحكمة والوحي

أي الشرع ثم يذكر العقيدة المنتشرة في الإسلام بأنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت الفاطمي يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي ويظهر الدجال وأن عيسى يظهر من بعده فيقتل الدجال أو يساعد على قتله[10].

ولعل دورية الدولة التي أشرنا إليها آنفاً استمدها ابن خلدون من دورية الحياة الإنسانية حيث يبدأ الإنسان طفلاً ثم يافعاً فرجلاً فكهلاً قبل أن تنتابه الشيخوخة ليعود طفلاً كما بدأ (أرذل العمر) يكون بعدها أجله وقضاءه حيث تماثل ذات الأطوار أطوار الدولة من طور الظفر بالبقية أي الملك ثم طور الاستبداد والانفراد بالملك وحجر العصبية عن المشاركة ثم طور الفراغ والدعة الناتجة عن الاتساع في العمران ثم الإسراف والتبذير الذي سيقود لانهيار الدولة[11].

ومن ناحية ثانية فإن إنكار ابن خلدون على من سبقه من المؤرخين رواياتهم والذين ذهبوا فيها مذاهب شتى من الظن والحدس والتخمين مما أوقعهم في الكذب إنما تحسب لمن سبقه من المؤرخين لا عليهم ذلك لأن وظيفة التاريخ هو تسجيل الوقائع كما هي فالمؤرخ ليس عالماً اجتماعياً كما يريد له ابن خلدون وإنما هو معني بتدوين الوقائع لا تحليلها ذلك أن اعتماد المؤرخ على القياس المنطقي ربما لا يتفق مع طبيعة الأشياء المحسوسة - كما أن الملاحظة والتجربة الشخصية ربما لا تكون متاحة للكثيرين بذات القدر الذي أتيحت له ولعل استقراء ابن خلدون للظواهر عند أمم محددة وفي عصور خاصة وانتهائه إلى قوانين عمة تصدق في كل مجتمع وفي كل مكان وزمان غنما اعتمدت على قناعته الدينية أكثر من اعتمادها على أخبار المؤرخين الذين سبقوه ورواياتهم التي سعى للتشكيك فيها متى تعارضت مع هذه القناعات وهكذا فالمقدمة والتي ركز فيها ابن خلدون على التاريخ والكتاب الأول الذي يبحث في العمران البشري يوفران العديد من الشواهد على أن ابن خلدون ومن

خلال ثقافته الدينية الواسعة وانتمائه إنما أراد تأكيد ما ورد ذكره في القرآن الكريم حول الإنسان والكون وما حفل به من سير لأقوام وحضارات سادت قم بادت ما تلا ذلك من سير وأخبار الدولة الإسلامية منذ نهاية الخلافة إلى العصر الذي عاش فيه ولعل قانون العصبية بوصفها مصدراً للقوة الاجتماعية وللظفر بالملك لا تشكك في هذا الالتزام اعتماداً على مأثور الحديث والذي يجعل من التقوى هي التي يتم عبرها التفاضل بين الأعراب والأعاجم (لا فضل لعربي على أعجمي غلا بالتقوى) ذلك لأن ابن خلدون غنما استند على فكرة محورية بشرحه للحديث (ما بعث نبي غلا في منعة من قومه) [12] وعليه فإن المنعة هي من علامات الرئيس من حيث تتجلى فيها العصبية التي هي إشارة للفوز السياسي وشرط المؤهلات للرئاسة التي ينبغي أن تحسب في عدادها الصبغة الدينية[13].

خـاتمـة :

يتضح مما تقدم أن الدولة (الملك) تشغل محـور ارتكـاز الفكـر الخلـدوني والمحرك لع ولعل رغبته في الظفر بالملك ربما كانت مبعث هذا الاهتمام خاصة وأنه عاش قريبا من الملوك جل حياته وربما كان يرى أحقية له فيه لو لا العصبية التـي يفتقر لها..

أما اهتمام ابن خلدون بإبراز الأخطار التي وقع فيها من سبقه من المؤرخين واتجاهه لتحديد معنى للتاريخ يبحث في العمران البشري على الجملة ربما تجعل من وصفنا للفكر الخلدوني بأنه الأساس الذي قام عليه (علم الاجتماع الحديث) إنما هـو تفسير غير دقيق ليس فقط لأنه يخلف عن الفكر الوضعي والذي أسهم كثيـرا فـي النشأة الأكاديمية لعلم الاجتماع بل لأن يفقد الفكر الخلدوني معالمه الفاصلة والمميزة والتي تستند إلى قناعات دينية في مناخ لا يمكن القطع بأنه يفور الحرة اللازمـة إلا أن خلال من انبثق من إشعار معرفي في إطار التفكير الميتافيزيقي الذي كان سائدا.

على أن نظرة ابن خلدون على أن يتجاوز التاريخ سـرد أخبـار الـسابقين لدراسة المجتمع البشري من مختلف نواحيه ونـشاطاته الاقتـصادية والاجتماعيـة والسياسية والفكر لا يمكن إلا أن تدلل على أن هذا الفكر الإسلامي الكبير إنما كـان يسعى لوضع أسس حديثة لكتابة التاريخ ومنهجا في استقرار الواقع والكشف عـن القوانين التي تسير الحرية الاجتماعية والتي لابد أن تتحد مـع القـوانين الطبيعيـة ولاتي قد تكتشف في المستقبل....

الهوامش والمراجع :

1. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السابعة بيروت 2001م ص 128
2. المصدر السابق ص 129.
3. محمود عودة، تاريخ علم الاجتماع، الجزء الأول، دار النهضة، العربية، بيروت، بدون تاريخ ص 107
4. ألبير نصري نادر، من مقدمة غبن خلدون، دار المشرق، بيروت 1986 ص 11.
5. المصدر السابق ص 13
6. المصدر السابق ص 15
7. الجابري، مرجع سابق، ص 117 - 118
8. المرجع السابق، 217
9. البير نصري، مرجع سابق ص 45
10. المرجع السابق ص 46
11. يرى الجابري أن الدورة التي عانها ابن خلدون هي تناوب العصبيات الخاصة على الحكم في إطار عصبية عامة واحدة راجع ص 216.
12. راجع الأحداث الدينية في هذا الصدد.
13. جورج لابيكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، تعريب د موسى وهبة دار الفارابي، بيروت، 1980م ص 99.